وهي لا تعتمد في النهاية على الطرق العلمية من ملاحظة أو تجربة ولكن محورها الرئيسي هو الإنسان نفسه المكون من قلب وعقل والقلب هو مركز المعرفة التي تصب فيه كل العلوم وهو الذي يصدر الحكم(٨٠).

تميزت المعرفة عند ذي النون المصري بما يأتي :-

١- طرق في باب المعرفة الصوفية منهجا جديدا فبين درجات المعرفة وطريقة الوصول إليها على نحو لم يسبق إليه.

٢- يرى أن معرفة الله تعالى طريقها الكتاب والسنة ، أما طريق المعرفة الفردانية فإنها لا تنال إلا بالكشف.

٣- معرفة اسم الله الأعظم هبة وفضل من الله يمنحها لمن يشاء من خلقه بلا أسباب ولا مقدمات يختص برحمته من يشاء.

وإذا انتقلنا إلى الحدود الشرقية في العالم الإسلامي فإننا نجد في "بلخ" "إبراهيم بن آدهم " : الذي كان رائدا للتصوف هناك ، وقد عرف عنه زهده وورعه وخلقه بل كانت حياته زاخرة بالأقوال والأفعال الروحية التي أصبحت فيما بعد أساسا لأهم النظريات الصوفية.

ومما عرف عنه أن الله ﷻ وهبه الاسم الأعظم ، واحتفظت مدرسة خراسان بعد وفاته بمنهجها على يد تلميذه " شقيق البلخي"

(٨٠) أصول التصوف الإسلامي د/ عبد المحسن الحسيني ص٢-١٢ عن كتاب التصوف الإسلامي مدارسة ونظرياته د/محمد جلال شرف - دار العلوم العربية - بيروت - لبنان سنة ١٩٩٠م .

الفصل الثامن

نماذج لأئمة التصوف في الإسلام.

(١) أبو سعيد الخراز .(ت ٢٧٧هـ) .
(٢) جعفر الخلدي .(ت ٣٤٨هـ)
(٣) إبراهيم بن أدهم .(ت ١٦١ هـ)
(٤) معروف الكرخي .(ت ٢٠٠ هـ)
(٥) أبو سليمان الداراني . (ت ٢١٥ هـ)
(٦) بشر الحافي (ت ٢٧٧هـ)

(١) أبو سعيد الخراز (٢٧٧هـ)([٨١])

أحد أئمة التصوف **أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز** ، ويعد من النماذج الفريدة في التصوف الإسلامي ، وكان له أثره في صوفية بغداد الذين جاءوا من بعده ، وقد صحب الكثيرين من أقطاب التصوف مثل **بشر بن الحارث وذي النون المصري** ، يقول عنه **البغدادي** : " أول من تكلم في علم الفناء والبقاء"([٨٢])

** **الفرق بين المعرفة والعلم .**

أ- يقول **أبو سعيد** : " المعرفة بالله هي علم الطلب لله من قبل الوجود له والعلم بالله بعد الوجود"([٨٣])

إنه يريد أن يفرق بين المعرفة والعلم حيث جعل مرتبة العلم أعلى من مرتبة المعرفة ، فالمعرفة وجدت قبل خلق العالم والإنسان والعلم بعد أن خلقهما قال الله ﷻ :﴿ **الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان** ﴾ الرحمن ١-٤ .

([٨١]) سمي بالخراز نسبة إلى خرز الجلود قال عنه الجنيد أقام كذا وكذا سنة ما فاته ذكر الحق مثالي بين الخرزتين ــ نتائج الأفكار للعروسي ج١ ص١٦٧ .
([٨٢]) السلمي : طبقات الصوفية ، والخطيب البغدادي بتاريخ بغداد ج٤ ص ٢٧٦ .
([٨٣]) نفس المرجع .

يقول إن الله تعالى جعل العلم دليلا عليه ليعرف ، وجعل الحكمة رحمة منه ليؤلف ، فالعلم دليل إلى الله والمعرفة دالة على الله فهو الغاية والمقصد .

فالمعرفة تقع بتعريف الحق والعلم يدرك بتعريف الخلق ثم تجرى الفوائد بعد ذلك (٨٤)

فالمعرفة " تأتى عن طريق الله أما العلم فيأتي عن طريق الخلق ثم يهب الله سبحانه النور في القلب حسب الاستعداد وصلاحية جهاز الاستقبال عند العبد لقبول المعرفة والعلم"

ب–طريق المعرفة : يرى الخراز أن طريق المعرفة يأتي من طريقين :

١– بذل المجهود . ٢– عين الجود .

ويوضحهما الآية الكريمة ﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ وهذا طريق بذل المجهود ﴿ **لنهدينهم سبلنا**﴾ العنكبوت ٦٩ . هذا هو عين الجود ، فيرى أن بذل المجهود يكون من الإنسان في عبادته وطاعته لله حسب أوامره والالتزام بالمنهج الإسلامي ، وهذا عمل كسبي يقوم به الإنسان ، ثم تأتى بعد ذلك الفيوضات الإلهية والمواهب اللدنية حسب الإرادة العلوية ، ويكون ذلك من الله ﷻ ﴿ **وإن الله لمع المحسنين** ﴾ العنكبوت ٦٩ .

• **أداء أركان الإسلام عند الصوفية :**

إذا كان علماء الشريعة تكلموا عن العبادات في شكلها الخارجي فإن رجال التصوف قد ربطوا بين طهارة الظاهر والباطن ، إن العبد إذا تطهر بأعضائه الظاهرية فإنه يتطهر أولا من الطهارة الداخلية التي هي محل نظر الله في الإنسان ، قال ﷻ ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .** ﴾ الشعراء ٨٨–٨٩ .

(٨٤) طبقات الصوفية ــ السلمى ص٢٣٠ .

ثم يأتي إلى الصلاة ، فتكبيرة الإحرام يقطع صلته بمن حوله ويتوجه بكليته إلى خالقه ﴿ **وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ البقرة ١٥٠.

ثم يناجي ربه بكلامه في الحديث القدسي يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة سبحانه : " **قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد "الحمد لله رب العالمين" قال سبحانه : حمدني عبدي ، فإذا قال العبد "الرحمن الرحيم" قال سبحانه : أثنى علي عبدي ، فإذا قال العبد "مالك يوم الدين" ، قال سبحانه : مجدني عبدي (وقال مرة : فوض إلي عبدي) فإذا قال العبد " إياك نعبد وإياك نستعين " ، قال الله : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذ قال اهدنا الصواط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" قال سبحانه : هذا لعبدي ولعبد ما سأل** " .(٨٥)

فالعبد يناجي ربه ويناجيه ربه ، يقول أبو سعيد : " فإذا ركع فليلتزم بالأدب في ركوعه ويدنو ويتدلى حتى لا يبقى فيه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله تعالى:﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ الواقعة ٧٤ .

ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء ــ شيء لا يذكر ــ فإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه سمع حمده فإذا سجد فالأدب في السجود حتى لا يكون شيىء أقرب في قلبه من الله قال تعالى:﴿ **واسجد واقترب** ﴾العلق ١٩.

فهذه المعاني التي يعيشها العبد عند وقوفه أمام مولاه بلا غفلة ولا انصراف بالقلب عن الله تجعله في مصاف العارفين ، بل الصلاة قرة

(٨٥) رواه الإمام مسلم والترمذي وأحمد والحميدي في مسنده ــ جامع الأحاديث القدسية للصابطي ج١ ص٢٢٤-٢٢٥ . ط دار الريان للتراث .

عين المحبين ، وهي راحة للقلب " إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره والوصول إلى قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم وأجزل نصيبهم من كل كائن ، ويتمتعون بأبدانهم وأرواحهم ، فتعيش أرواحهم عيش الربانيين وتعيش أبدانهم عيش الجانبيين لأعمالهم ، كذلك لهم لسان في الباطن يعرفهم صنع الصانع في المصنوع ، ولسان في الظاهر يعلمهم علم المخلوقين ، ولسان الظاهر يكلم أجسامهم ولسان الباطن يناجى أرواحهم"([٨٦])

فالربانيون ورثة الرسل ، وهي أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة ، قال تعالى :﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله** ﴾ النساء ٦٩-٧٠ .

وسئل الخراز عن أول طريق الوصول إلى معرفة الله تعالى قال: بالتوبة ثم الخوف ثم الرجاء ثم مقام الصالحين ثم مقام المريدين ثم مقام المطيعين ثم مقام المحبين ثم مقام المشتاقين ثم مقام الأولياء ثم مقام المقربين قال الله ﷻ : ﴿ **والسابقون السابقون . أولئك المقربون .** ﴾ الواقعة ١٠-١١ .

وسئل عن شروط التوبة فأجاب بقوله: الإخلاص فيها والندم على التقصير في الماضي ، والاشتغال بالطاعة في الحاضر ، وعدم الرجوع في المستقبل ، وترك الأصدقاء الذين كانوا سببا في لهوك وغفلتك عن الله تعالى قال الله ﷻ ﴿ **يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا** ﴾ الفرقان ٢٨-٢٩ .

([٨٦]) طبقات الصوفية للسلمي ص٢٢٩.

ويصف الله سبحانه صحبة الخير بقوله ﷻ ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ الزخرف ٦٧ .

فالتوبة عند الخراز لا تخرج عن الشريعة الإسلامية ، بل هي السير على منهج الله في تنفيذ أمره والبعد عن نهيه ، فبالتمسك بالشريعة يكون العبد سائرا في الطريق إلى الله لأنه لا يعرف الله إلا به فمن عرف وصل ومن أنحرف انفصل .

وتاريخ وفاة أبى سعيد اختلف فيه ، فقيل أنه مات سنة ٢٤٧ هـ أو كما يقول القشيري سنة ٢٧٧ هـ وقد رجح البغدادي التاريخ الثاني(٨٧).

(٢) جعفر الخلدي .(ت ٣٤٨هـ)

ولد جعفر الخلدي سنة ٢٥٣ هـ ويعتبر من أئمة التصوف الإسلامي في بغداد ، هو **جعفر بن محمد بن نصير أبو محمد الخواص** ، بغدادي المولد والنشأة ، وصحب الجنيد وتعلم منه ، وعرف بالخلدي نسبة إلى مكان ببغداد "(٨٨) وقيل سمى بالخلدي لقصة حدثت معه ، يقول : كنت يوما عند الجنيد ، وعنده جماعه من محبيه يسألونه عن الرزق قائلين له : أنطلب الرزق ؟ فأجابهم جعفر: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه وإن نسيكم الرزاق فذكروه.

فقالوا : أندخل البيت ونتوكل على الله ؟ فقال : أتجربون الله بالتوكل ؟ فهذا شك . فقالوا : ما الحيلة ؟ فقال : ترك الحيلة. عندئذ قال له الجنيد : ياخلدي من أين لك هذه الأجوبة ؟ من هنا أطلق عليه اسم الخلدي .

قال الخلدي : "والله ما سكنت الخلد ولا سكنه أحد من آبائي"(٨٩)

---

(٨٧) الرسالة ــ القشيري ص٢٢ وتاريخ بغداد ــ للبغدادي ج٤٤ ص٢٧٨ .
(٨٨) شذرات الذهب السلمي ص٤٣٤
(٨٩) تاريخ بغداد ــ الخطيب البغدادي ج٢ ص٢٢٧ .

وعلى هذا فيكون الجنيد هو الذي لقبه بهذا اللقب ويؤخذ من هذه الحكاية أن الخلدي كان فاهما لحقيقة معنى التوكل الذي أشار إليه القرآن الكريم : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ الطلاق٣ .

وقال تعالى للرسولﷺ :﴿ **وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا**﴾ الأحزاب ٣.

وحديث الرسول ﷺ : " **لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير في وكناتها...**)(٩٠)

فالتوكل على الله لا ينافي السعي في سبيل تحصيل الرزق (٩١)

وقال الله ﷻ للرسولﷺ :﴿ **وتوكل على الحي الذي لا يموت** ﴾ الفرقان ٥٨.

التصوف من لدن آدم عليه السلام .

يقول الخلدي كنت نائما فإذا بهاتف يقول: يا جعفر امض إلى موضع كذا واحفر فإن لك هناك شيئا مدفونا ، قال : فجئت إلى الموضع وحفرت فوجدت صندوقا فيه دفاتر وإذا فيه حزمة فأخرجتها وقرأتها فإذا فيها أسماء ستة آلاف شيخ من أهل الحقائق والأصفياء والأولياء من وقت آدم عليه السلام إلى زماننا هذا ونعوتهم وصفاتهم ، وكلهم كانوا يدعون هذا ــ يعني مذهب الصوفية ــ وكان في تلك الكتب عجائب فقرأ ولم يدفعها إلى أحد ثم دفنها ولم يظهر ذلك لأحد إلى أن مات"(٩٢)

وكلام الخلدي هذا يرجع بالتصوف من لدن آدم عليه السلام قال تعالى:

﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ الأعراف ١٧٢ .

وهذا الميثاق هو معرفة الله سبحانه ، فالتصوف قديم قدم خلق الإنسان . وما التصوف الإسلامي إلا تتبعا وتتطورا على أسس إسلامية كمثل شجرة

---

(٩٠) رواه مسلم .
(٩١) الصوفية في الإسلام ص٤٩ .
(٩٢) تاريخ بغداد الخطيب البغدادي ج٧ ص٢٢٧ - ٢٢٨ .

طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وشأن التصوف في ذلك كشأن المنبع والروافد فهو ينبع من طبيعة الدين الذي نشأ وتطور من خلاله الأولياء أبواب الوصول إلى الله فمن لم يكن عنده استعداد ويدخل به من طريق ذلك الولي دخل من طريق غيره .(٩٣)

وكان الخلدي يخاف من الاطلاع على هذه الأوراق واعتبره اطلاعا على أسرار المشايخ فيسألونه أمام الله لم أخرجت أسرارنا ؟ يقول : " إني أخاف أن توقفني المشايخ بين يدي الله يقولون : لم أخرجت أسرارنا إلى الناس ؟ "(٩٤)

ولهذا يسمى التصوف علم الأسرار ، ينعته البغدادي قائلا : "كان الخلدي من أفتى المشايخ وأحسنهم علما وحالا وقد حج قريبا من ستين حجة(٩٥)

وقد توفي جعفر الخلدي ببغداد سنه ٣٤٨ هـ عن عمر ناهز الخامسة والتسعين سنة فرضي الله عنه ورحمه رحمة واسعة.

*** منهج الخلدي .**

كان للخلدي منهجا خاصا في التصوف ، فهو يرى أنه لابد من مصاحبة الصوفية والتزام طريقتهم حتى يستطيع الوصول إلى غايته المنشودة وأطلق على تلك المصاحبة السياحة"(٩٦) وقسمها إلى قسمين:

١- سياحة النفس ، وتكون بالمجاهدة والرياضة.

٢- سياحة القلب ، عندما يستطيع المريد الاستقلال عن شيخة.

يقول الخلدي :" السياحة سياحتان : سياحة النفس ، وتكون بالسير في الأرض ليرى أولياء الله أو يعتبر بآثار قدرته ، وسياحة القلب في

(٩٣) الطبقات للشعراني ج١ ص١٠١

(٩٤) تاريخ بغداد ــ البغدادي ج٧ ص٢٢٨ .

(٩٥) تاريخ بغداد ــ البغدادي ج٧ ص٢٣٠.

(٩٦) طبقات الصوفية ــ السلمي ص٤٣٨

الملكوت فيورد على صاحبه بركات مشاهدات الغيوب فيطمئن القلب عند الموارد لمشاهدة الغيوب"([٩٧])

ولهذا يعرف التصوف تعريفا أقرب إلى تجريد الإنسان من نفسه والاشتغال بربه.

يقول : " التصوف طرح النفس في العبودية والخروج من البشرية والنظر إلى الحق بالكلية "([٩٨])

فهو سلب الإنسان من حوله وقوته وإرادته والخروج من صفات النفس المذمومة من كراهية وغل وحقد وحسد ونحو ذلك والالتجاء إلى الله بالكلية هذا لا يتم ولا يتحقق إلا عن طريق سياحة النفس والاتصال بالأولياء لمعرفة السير في الطريق الصحيح فإن من أراد السير إلى بلد لابد له من سؤال من سار قبله وإلا ضل الطريق ولابد من مراعاة الله في كل شيء : ﴿ **وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾ الصافات ٩٩ .

فإذا خرج الإنسان من صفات نفسه الذميمة اتصف بصفة الفتوة ، وقد عرفها بقوله احتقار النفس وتعظيم حرمة المسلمين وهذه الفتوة تقتضي الإخلاص ويبتعد عن الرياء والفرق بينهما.

أن المرائي يعمل العمل ليراه غيره من الناس فيكون عمله للناس ، أما الإخلاص فهو أن يعمل العمل يبتغي به وجه الله تعالى فهو يعمل ليصل إلى رضوان الله ، قال الله ﷻ ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ الكهف ١١٠ .

والفتوة عنده نوع من الإيثار ، يقول : " الفتوة أن يؤخر الإنسان حظ نفسه ويقدم حظ إخوانه ليكون الحق ﷻ في حاجته بالقضاء والتيسير"([٩٩]) والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه .

([٩٧]) طبقات الصوفية السلمي ص٤٣٩ .
([٩٨]) التصوف ــ د٠أبو العلا عفيفي ص٥٣ .
([٩٩]) الطبقات الشعراني ج١ ص١٠١ .

والصدق درجة الصديقين وهو من ألقى إليه روح الصديقية ، أما معرفة موارد الأمور ومضادها فهي من خصائص من ألقى إليه روح المعرفة وتكون بجولان القلب وسياحته في الملكوت ، أما من أكرم بالعلم اللدني فقد ألقى إليه روح المشاهدة وهذا عند من يعتبرون الأحوال مواهب وليست مكاسب ، وتمام الطريق الصوفي عند الخلدي لا يتحقق إلا إذا سكنت التقوى قلب العبد فيصل إلى درجة الإحسان ويعبد الله بدوام النظر إليه كأنه يراه ، فإذا استقرت التقوى في قلبه كان قبض الله له بالعلم وزالت عنه رغبة نفسه في الدنيا لما يراه من لذة مناجاته"(١٠٠) ولهذا لا يحس الإنسان بلذة المناجاة مع لذة النفس لأن القلب لا يشغل إلا بواحد ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ الكهف ١١٠ . فأهل الحقائق خرجوا من الدنيا قبل أن تخرجهم ، وقطعوا العلائق قبل أن تقطعهم ؛ لأنهم رأوا النتائج قبل المقدمات ، فالقلب إذا شغل لا يشغل﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ الأحزاب ٤ .

وكان الخلدي يحب العلم ويفضله على أي شيء آخر ، وكان العمل عنده مؤسسا على العلم ، يقول الشعراني ناقلا عنه : " لا أعرف شيئا أفضل من العلم بالله وبأحكامه ، فإن الأعمال لا تزكوا إلا بالعلم ، ومن لا علم عنده فليس له عمل ، وإنما يكره من العلم تضييعه ونبذه خلف الظهر ، فقيل له : فهل طلب العلم عمل ؟

فقال : هو أكبر الأعمال ، وبالعلم عرف الله وأطيع وبالعلم استحى من الله المستحيون ، وهو قبل الأعمال قال ﷻ : ﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان ﴾ الرحمن ١-٤ .

وقال ﷻ :﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ العلق ٥ .

(١٠٠) طبقات الصوفية للسلمي ص٤٣٩ .

ويكفي بأن أن أول آيه نزلت في القرآن الكريم : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾ العلق ١ . وقال الله ﷻ ﴿ **والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ آل عمران ٧ .

يقول **أبو بكر الكناني** : "الغافلون يعيشون في رحمة الله ، والعارفون يعيشون في لطف الله ، والصادقون يعيشون في قرب الله"([١٠١])

فالكل يشملهم الله برحمته ولطفه وقربه رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

(٣) إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١ هـ)

* **التعريف به** : هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخي .

" كان ﷺ ذا منهج عملي في التصوف ، بل يفضله على المنهج النظري ، وكان يقول " اطلبوا العلم لأجل العمل " ، وكأني به يريد أن يقول إن العلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر أو كجسد بلا روح .

وكان أفقه أهل عصره ، مقبلا بكليته على تمام العبادات الظاهرية مع تعمقه في فقه القلوب ، الذي يعبر عنه بالتصوف في مقابل فقه العبادات ، وكان مصاحبا لسفيان الثوري والفضيل بن عياض ، وكان يعمل في حراسة البساتين ، والحصاد ، فكان طعامه من عمل يده ، ونعرف من إبراهيم البلخي كيف كان سلوك إبراهيم في طريق التصوف من هذا الحوار الذي دار بينه وبين خادمه إبراهيم بن بشار عندما سأله : كيف كانت بداية سلوكه في هذا الطريق ؟ فأجابه قائلا:

" كان أبي من أهل بلخ ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسر ، وقد حبب إلينا الصيد ، فخرجت راكبا فرسي ومعي كلبي ، فبينما أن كذلك إذا رأيت أرنبا ، فحركت فرسي ، فسمعت نداء من ورائي : " ليس

([١٠١]) طبقات الصوفية للسلمي ص٣٧٦ .

لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ، وتكرر هذا النداء ، فعلم إبراهيم أن هذا نذير من قبل رب العالمين ، وأن عليه أن يطيع ، فلم يلبث أن تخلى عن فرسه ولبس كساء الرعاة ، وتوجه من خراسان إلى العراق ، وعمل بها أياما ، ثم توجه إلى بلاد الشام طالبا عملا حلالا ليتعيش منه ، ونزل في بلدة يقال لها **المنصورة** " **بطرسوس**" وأقام بها يعمل في مهنة الحصاد ، وكان قريب السن من شيخ من شيوخ التصوف يقال له "**سليمان الخواص**" ، فلما أراد إبراهيم مصاحبته سمع نداء في نفسه يقول له" اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا".

ويصف **على بن بكار** إبراهيم قائلا : إنه كان يلبس في الشتاء فروا ليس تحته قميص ولم يك يلبس عمامة على رأسه ولا نعلا في رجليه ، ويلبس في الصيف شقتين بأربعة دراهم يتزر بواحدة ويرتدى بأخرى ، ويصوم في السفر والحضر ، ولا ينام من الليل إلا قليلا ، وكان كثير التفكر ، وكان إذا انتهي من عمله بالحصاد أرسل بعض أصحابه فحاسب صاحب الزرع فإذا جاءه بالدراهم لا يمسها بيده ويقول لأصحابه " اذهبوا كلوا بها شهواتكم"([١٠٢])

كما يتحدث عنه صاحب **حلية الأولياء** : " يقول **أحمد بن داود** إن شرطيا يدعى يزيد مر بإبراهيم بن أدهم ، وهو يعمل في كرم ، فقال له : ناولنا من هذا العنب ، فقال إبراهيم : ما أذن لي صاحبه . فقال الشرطي : فيغلب السوط ، وأمسك بموضع الشيب في ذقنه فجعل يقنع رأسه أي يجذبها إلى أسفل فطأطأ إبراهيم رأسه وقال له : اضرب رأسا طالما عصى الله ، فقال من روى عنه فأعجز الرجل عنه([١٠٣]) أي أصابه العجز.

([١٠٢]) حلية الأولياء ــ أبو نعيم ج٧ ص٣٧٣ مطبعة بيروت .
([١٠٣]) حلية الأولياء لأبى نعيم ص ٣٧٣-٣٧٤.

ومما يروى عنه أيضا أنه كان ذات يوم يركب سفينته ، وعصفت الريح واشتدت ، وكادت السفينة أن تغرق والناس في ولع وخوف وهو ملتف في كسائه فزجره أحد الركاب قائلا له لم لا تجزع ويصيبك الخوف مثلنا؟ وظل مستقرا في كسائه ولم يلبث إلا أن أخرج رأسه ناظرا إلى السماء قائلا : اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ، فسكن البحر حتى صار كالدهن"([١٠٤])

عندما ننظر إلى بعض هذه الصور من حياة هذا الزاهد العارف نجد أنه كان مثالا للصوفي المجاهد المتجه إلى الله تعالى بكليته الزاهد في دنيا الناس المؤدي فرائض الله كما أمر بها وكان من أغنى الناس نفعا وأنقاهم قلبا وأطهرهم سريرة ومن أقواله في المعاملة مع الله : " لن يصدق الله من أراد الشهرة"([١٠٥])

ومن أقواله في الاشتغال بالحق : " كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب"([١٠٦])

ومن أقواله : "من عرف نفسه اشتغل بنفسه ، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره" ([١٠٧])

وقال : ([١٠٨])" لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

أولها: أن تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .

والثانية: أن تغلق باب العز، وتفتح باب الزهد.

والثالثة : أن تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد.

([١٠٤]) المرجع السابق ج٨ ص١٣ -٣٨ بتصرف.
([١٠٥]) المر جع السابق .
([١٠٦]) المرجع السابق .
([١٠٧]) المرجع السابق .
([١٠٨]) طبقات الصوفية ص٣٨.

والرابعة: أن تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .

والخامسة: أن تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر .

والسادسة :أن تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت.

وكأني بإبراهيم بن أدهم يضع منهجا للسالكين إلى الله تعالى :

فأول الطريق هجر : الدنيا والإقبال على الله سبحانه.

ثانيا : التسليم الكلي لله سبحانه معترفا بالعبودية لجلال الله"

ثالثا: الصبر على البلاء ، والمجاهدة للتخلص من أعراض الدنيا.

رابعا: الاشتغال بالمعاني الروحية للعبادات حتى تتكشف له المعاني فيتجرد من الغنى الظاهر ويغنيه الله بأنسه.

خامسا: مقامه في هذه المعاني حتى يزداد حبا وقربا.

سادسا: ينقطع عن عالم الحس ، فترتاح الروح بموت الجسد مع إنيته .

ويعبر ابن أدهم عن مقام الرضا في شعره قائلا:

تركت الخلق طرا في رضاكا وأيتمت العيال لكي أراكا(١٠٩)

كما نجد أن الحب هو الدافع الأساسي على الترقي والوصول إلى درجة المحبين ، يقول مناجيا الله سبحانه:

فلو قطعتني في الحب إربا لما حن الفؤاد إلى سواكا(١١٠)

فالحب الإلهي قد أشار إليه ابن أدهم وخاصة في الشطر الثاني ، وكان يقول في دعائه :" **اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك** " .

وفي نهاية المطاف دخل الشام ومات بها ﷺ ورحمه رحمة واسعة .

---

(١٠٩) شذرات الذهب لابن العماد ج١ ط بيروت ج ص٢٥٦ .

(١١٠) نفس المرجع ج١ ص٢٥٧ .

(٤) معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) .

* **التعريف به :** معروف محفوظ بن فيروز الكرخي ، نسبة إلى حي الكرخ ببغداد ، وعرف بأحواله وكراماته المتعددة ، ومن أقواله : ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين في الصالحين "

ويفسر قوله هذا : " الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم ، فالنفاق داء خفي يفسد العمل. "

* ومن أقواله أيضا في حقيقة التوكل :

" توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك ، فإن الناس لا ينفعونك ، ولا يضرونك"

ويفسر هذا القول ما تشير إلى الآية الكريمة : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ الطلاق٣ .

وسئل عن المحبة فقال: " المحبة ليست من تعليم الخلق ، إنما هي من مواهب الحق وفضله " .

وقيل له ــ وهو في مرض الموت ــ : أوصى ، فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا ، فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانا ، كما دخلت إليها عريانا .

فمن هذه الأقوال يتضح لنا أن معروف الكرخي كان زاهدا معرضا عن الدنيا ملتجأ إلى الله تعالى في طلب العلم والأنس به والتوكل عليه والإعراض عن الناس ، فليس بيدهم ضر ونفع ، وحب الله سبحانه مواهب من فضله وجوده يهبها لمن يشاء ، فهي لا تنال بالاكتساب وإنما تأتي من فضل الوهاب ، والمخلصون تمتد بهم الحياة حتى بعد موتهم

بجميل ذكراهم فالذكرى للإنسان عمر ثاني ، كما ينبغي أن يأخذ الإنسان من الدنيا كما يأخذ المريض من الدواء ، فعلى حلالها حساب وعلى حرامها عقاب .

وهكذا نجد أن أقوال معروف ترتكز على تربية السالك حتى لا تشغله الدنيا عن الآخرة ، وكان يشتغل حاجبا **لعلى بن موسى الرضا** ، أحد كبار رجال التشيع ويقال إن الشيعة ازدحموا يوما على باب على بن موسى ، ودفعوا بمعروف حتى تكسرت أضلاعه فمات ودفن ببغداد ، وقبره يقول عنه البغداديون " قبر معروف ترياق مجرب " بفضل الله سبحانه.

نماذج من القرن الثالث الهجري .

(٥) أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥ هـ)

* **التعريف به :** هو عبد الرحمن بن عطية ، ولد في قريه "داريا " من قرى دمشق ، وله أقوال في الزهد ، منها : "إذا بلغ العبد غاية في الزهد، أخرجه ذلك إلى التوكل"([١١١])

ويعبر الداراني عن الزهد بأنه أول مدارج السالكين ثم تكون الدرجة الثانية هي التوكل ، وإذا زهد الإنسان في الخلق فإنه يتوكل على الخالق سبحانه ، وسأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله دلني على شيء إذا فعلته يحبني الله ويحبني الناس ؟ فقال له ﷺ : **إزهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد مما في أيدي الناس يحبك الناس**"([١١٢])

ويقول الداراني : ليس الزاهد من ألقى غم الدنيا واستراح فيها ، إنما الزاهد من ألقى غمها وتعب فيها لآخرته"([١١٣])

([١١١]) حلية الأولياء ج٩ ص٢٥٦ .
([١١٢]) رواه مسلم في باب الزهد .
([١١٣]) حلية الأولياء ج٩ ص٢٧٣ .

إنه يرى أن الزهد في الدنيا ليس بترك ما فيها فقط ولكن الزهد عنده ترك همومها ودوام العمل للآخرة قال الله ﷻ :

﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ البلد ٤ .

وقال الله ﷻ : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ الشرح ٧ .

ويقول الداراني : " الزاهد حقا لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ولا يحزن عليها إذا أدبرت"(١١٤)

وهذا المعنى تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ الحديد ٢٣ .

وإذا كان هذا كلام الداراني في الزهد فإنه أيضا قال في النهي عن طلب الدنيا ومخالفة الهوى : " اجعل ما طلبت من الدنيا ولم تظفر به ، بمنزلة ما لم يخطر ببالك ولم تطلبه" (١١٥) ، حتى لا يكن في القلب اعتراض على فوات المطلوب ، وكأني به يريد أن يكون القلب مسلما لكل ما يريده الله ويعلم أن الخير كله فيما قضى ودبر ، كما يشير إلى أن حب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب أبدا لأنهما ضرتين والإنسان لا يملك قلبين ،يقول إ: " ذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحلت الآخرة منه ، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تجئ الآخرة تزحمها لأن الدنيا لئيمة والآخرة عزيزة(١١٦).

وقال في مخالفة الهوى : " أفضل الأعمال مخالفة الهوى"(١١٧)

(١١٤) حلية الأولياء ج٩ ص٢٦٦ .
(١١٥) حلية الأولياء ص٧٩-٨٠ .
(١١٦) حلية الأولياء ص ٧٩-٨٠.
(١١٧) الرسالة القشيرية ــ ص٨٩.

ويقول القائل :

إني بليت بأربع ما سلطوا إلا لأجل مذلتي وشقائي .

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي .

وقال في قوله تعالى :﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** ﴾ الإنسان ١٢.

فسر الصبر بأنه : الصبر عن الشهوات.

وعن **أحمد بن الحواري** قال : دخلت على أبى سليمان يوما وهو يبكي فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد ولم لا أبكي ، وإذا جن الليل ، ونامت العيون ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وافترش أهل الهمة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت في محاريبهم ، أشرف الجليل ﷻ فنادى : يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي ، واستراح إلى ذكرى ، وإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم ، وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادي فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوما إذا جنهم الليل تملقوا إلي ؟ فبي حلفت أنهم إذا وردوا على يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم"([١١٨])

وقال عن الخوف والحزن :-

"إذا سكن الخوف القلب انصرفت الشهوات ، وطرد الغفلة من القلب"([١١٩])

" مفتاح الآخرة الجوع ، ومفتاح الدنيا الشبع ، أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى"([١٢٠])

([١١٨]) الرسالة القشيرية ص٨٧-٨٨.

([١١٩]) طبقات الصوفية ص٨١.

([١٢٠]) حلية الأولياء ص٢٦١.

ويقول في المعرفة : "علموا النفوس الرضى بمجارى المقـــدور ، فنعـــم الوسيلة إلى درجات المعرفة"([١٢١])

وسئل أبو سليمان: بأي شيء ننال معرفته ؟ قال : بطاعته ، قالوا : فبأي شيء ننال طاعته ؟ قال: به"([١٢٢])

وتكلم عن الحب الإلهي مناجيا ربه: " يـــا رب إن طـــالبتني بســـريرتي طالبتك بتوحيدك ، و إن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك ، وإن جعلتنـــــي من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك"([١٢٣]).

** تعقيب:-

نلاحظ أن أقوال الداراني تنطوي على الزهد في الدنيـــا وذمـــها وطلـــب الآخرة في محاربة الشهوات ، والدعوة إلى قيادة النفـــس بتجويعـــها وذم الشبع ومتابعة الهوى ، والترغيب في الجنة ، والترهيب مـــن النـــار وإن كانت في جملتها لا تعبر عن مذهب صوفي واضح المعـــاني ، إلا أنـــها تشير لنا عن سيرة أبى سليمان الروحية ، وحياة المريـــد العـــارف وقـــد غلبت عليه ناحية الزهد مما جعله صاحب الطبقات وجعله مـــن صوفيـــة الطبقة الأولى ، إن كان معظمهم من الصوفية الزهاد.

وقد بين الداراني أن للمجاهدة ثمرة وهي الصدق ، بمعنـــى أن العبـــد إذا صدق مع الله صدق الله معه ، وذلك بأداء العبادة ظاهرا وباطنا، واستقامة النية ، وتخرج من كل هذا إلى المعرفة التي يسعى إليها الصوفي ، وكلما

([١٢١]) طبقات الصوفية ص٧٧-٧٨.
([١٢٢]) حلية الأولياء ص٢٦٥.
([١٢٣]) المرجع السابق ص٢٥٥.

اشتد نور المعرفة على القلب كلما ازداد الحب الإلهي الذي يملأ قلب العاشق لذات الله تعالى ويتدرج السالك حتى يصل بفضل الله تعالى إلى توحيد الموقنين أي الوصول إلى عين اليقين :

﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ الحجر ٩٩ . فتكون العبادة لذاته فقط .

وعندما ننظر إلى أقوال الداراني نجد شخصية تمثل صورة من صور أئمة الصوفية الأوائل الذين أعطوا المثل الصادق لتصفية حركة الزهد والتصوف من كل تأثير خارجي على التصوف الإسلامي.

(٦) بشر الحافي (ت ٢٧٧هـ)

• **التعريف به :** هو أبو نصر بشر الحارث المروزي([١٢٤]) وكنيته " أبو نصر" ، أصله من " مرو " وسكنه بغداد ، وأشتهر بالورع ، واتصف بالزهد الشديد في الدنيا ، ويروى عن سبب تسميته بالحافي أنه عندما سلك طريق التصوف لم يشتر لنفسه ملابس ، وكان أميرا فبلي حذاؤه فكان يذهب إلى الإسكافي لإصلاحه مره بعد مرة حتى ضاعت معالم الحذاء من كثرة الترقيع فتضايق الإسكافي من كثرة الترقيع ، وقال لبشر: ما أكثر ما تثقلون به على الناس ، وهنا أدرك بشر أنه قد أثقل على الناس بمطلب من مطالب الدنيا ، فأخذ الحذاء ورمى به قائلا: والله لن أثقل على أحد ولن ألبس حذاءا أبدا ، واستمر حافي القدمين إلى آخر حياته ، والرواية تشير إلى أن بشرا اتخذ من حوراه مع الإسكافي موضوعا آخر اختصه لنفسه وهو أن يعيش بين الناس بلا مطالب فلا يكون ثقلا عليهم كما يقول القائل:

([١٢٤]) حلية الأولياء ج٨ ص٣٢٦.

لا تسألن بنـــي آدم حاجـــة وسل الذي أبوابه لا تحجب .
فالله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب .

فإذا غضب العباد من السؤال فالعبد يتوجه إلى الله الذي يغضب من عـدم السؤال ، فالله أكرم الأكرمين الذي يسمع دعاء السائلين :

﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعـــوة الـداع إذا دعـان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ البقرة ١٨٦ .

ولهذا كان بشر يقول : "عز المؤمن استغناؤه عن الناس ، وشـــرفه قيـام الليل" ، كما كان يرى أن العلم الحقيقي هو العمل يقول : "العلم هو العمل، فإذا أطعت الله علمك ، وإذا عصيته لم يعلمك "

فكأن العلم الحقيقي هو الذي يكون من الله بتقواه وترك الذنـــوب ؛ لأنـــها تذهب بنور العلم كما قال **الإمام الشافعي**ﷺ :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي.
وأخبرنـــي بأن العلم نـــور ونور الله لا يـــهدى لعاصي .

ومن قوله في المعاملة مع الله والسرية في فعل الخير:

" أكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك "[١٢٥]

ويقول : " من عامل الله بالصدق استوحش من الناس ." [١٢٦]

ويقول : " كل من طلب الدنيا تهيأ للذل . "[١٢٧]

لقد زهد بشر في الدنيا وتعلق بالآخرة كغيره من أئمة الصوفيـــة والعلـم عنده ليس كسبا ولكن يأتي من الله عن طريق تقواه وطاعته فإذا عمل بمـا

([١٢٥]) شذرات الذهب – العماد الأصفهاني ج٢ ص٦٠.
([١٢٦]) وفيات الأعيان لابن خلكان ج١ ص٩٠.
([١٢٧]) الرسالة القشيرية ج١ ص٦٨.

علم ورثة الله علم ما لم يعلم ، ويسعى للهرب إلى الآخرة كما يقول : "تعلم وأعمل ثم أهرب"(١٢٨) وليس الهرب عنده بالموت ولكن بالعزلة في الخلوة والانقطاع لله بالكلية.

فكان منهج بشر في العلم منه ما يأتي عن طريق الكسب وهذه علوم الدنيا، ومنه ما يأتي عن طريق التقوى والخوف من الله تعالى وهذا عن طريق من اصطفاهم الله لتلقى نوره قال تعالى: ﴿ **واتقوا الله ويعلمكم الله** ﴾ البقرة ٢٨٢ . وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بقوله ﷺ ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾ طه ١١٤ . والله سبحانه يخرج المطيعين من ظلمات الجهل إلى نور العلم قال تعالى: ﴿ **ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ المائدة ١٦ .

(١٢٨) الطبقات الكبرى ــ عبد الوهاب الشعراني ج١ ص٦٠.

نتائج البحث .

بعد دراستنا لقضية التصوف في المنهج الإسلامي نعرض النتائج الآتية :

(١) لا جدال في أن القرآن الكريم هو المنبع الـــذي لا ينضـــب للغـــذاء الروحي .

(٢) بنى صرحا شامخا لتخريج الرجال الذين علموا الدنيا بسلوكهم قواعد الإسلام.

(٣) أن التصوف ليس منهجا سلبيا كما يدعى خصوم التصوف.

(٤) الذين يقولون إن المتصوفة عالة على المجتمع لم يفهموا شـــيئا عـــن التصوف.

(٥) الحقيقة والشريعة وجهان لعملة واحدة ولا تناقض بينهما.

(٦) الميزان في قبول العمل ورده هو الكتاب والسنة.

(٧) أي فكر غربي يلفظه القرآن وتهدمه السنة.

(٨) آداب الصوفية تمنعهم من الرد الذي يرفضـــــه المنـــهج الإســـلامي ﴿ .. **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ الفرقان ٦٣ .

(٩) التصوف "موجود" بوجود لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(١٠) المنكرون للتصوف ينكرون ثمار الشريعة الإسلامية وهي العمل.

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.

د٠ محمد البيومي عبد الواجد الشيخ .

أهم مراجع البحث .

(١) القرآن الكريم .
(٢) السنة النبوية : البخاري ، ومسلم .
(٣) إحياء علوم الدين ــ الإمام الغزالي .
(٤) أصول التصوف الإسلامي ــ د/ عبد المحسن الحسيني .
(٥) الأنوار القدسية في آداب العبودية ــ للإمام الشعراني .
(٦) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ــ السهروردي .
(٧) تاريخ بغداد ــ الخطيب البغدادي .
(٨) التصوف الإسلامي مدارسة ونظرياته ــ د/ محمد جلال شرف .
(٩) التصوف العربي ــ محمد ياسر شرف .
(١٠) التصوف المقارن ــ د/ محمد غلاب .
(١١) التعرف لمذهب أهل التصوف ــ الكلاباذي .
(١٢) الحركة الصوفية في الإسلام ــ د٠محمد على ريان .
(١٣) حلية الأولياء ــ لأبى نعيم .
(١٤) الحياة الروحية في الإسلام ــ د ٠محمد مصطفي حلمي .
(١٥) ديوان الشعر ــ لابن الفارض .
(١٦) الرسالة القشيرية ــ للقشيري .
(١٧) شذرات الذهب ــ لابن العماد الحنبلي .
(١٨) الصوفية في الإسلام ــ نيكلسون .
(١٩) طبقات الشافعية ــ السبكي .
(٢٠) طبقات الصوفية ــ للسلمي .
(٢١) العقيدة والشريعة ــ جولد تسيهر .

(٢٢) عوارف المعارف ــ للسهروردي ــ تحقيق د٠عبد الحليم محمود .
(٢٣) فصوص الحكم ــ لابن عربي .
(٢٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه ــ نيكلسون .
(٢٥) في ظلال القرآن ــ سيد قطب .
(٢٦) القاموس المحيط للفيروزابادي .
(٢٧) قوت القلوب ــ لأبى طالب المكي .
(٢٨) كشف المحجوب ــ الهجويري .
(٢٩) لطائف المنن والأخلاق ــ للإمام الشعراني .
(٣٠) اللمع ــ السراج الطوسي .
(٣١) مدارج السالكين ــ ابن القيم .
(٣٢) مقدمة التصوف ــ د٠عبد الحليم محمود .
(٣٣)المنقذ من الضلال ــ الإمام الغزالي ــ تحقيق د٠عبد الحليم محمود.
(٣٤) نشأة الفكر الفلسفي ــ د٠ سامي النشار .
(٣٥) الوصايا ــ للمحاسبي .
بالإضافة إلى مراجع تخريج الأحاديث القدسية والنبوية .